

الفصل الثالث

المقاصد التربوية من إصلاح التعليم في فكر الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور

خالد الطرودي(*)

مقدمة:

يُعدّ المشروع الإصلاحي المتعلق بالتربية والتعليم وتجديد طرق التدريس ومناهجه، من القضايا التي أوليت عناية خاصة في الفكر الإسلامي المعاصر. فالأحداث التاريخية تضبط لنا أصول هذه المبادرة الإصلاحية في كامل مجالاتها، وتربطها تحديداً بالاستعمار الأوروبي على الوطن العربي والإسلامي، الذي بدوره أحدث صدمة أيقظت من هذه الشعوب المستعمرة نخبة مفكرة، كانت سبّاقة في مجال الإصلاح عموماً والتربوي خصوصاً؛ من أمثال جمال الدين الأفغاني، ورفاعة الطهطاوي، وخير الدين باشا التونسي، والشيخ محمود قبادو، وابن أبي الضياف، وسالم بوحاجب.

ومع تطور الأحداث أصبح هذا الفكر الإصلاحي التربوي مسؤولية عظيمة، يحمل تراكمات نظيرية وعملية صاغت أشكاله، وحدّدت مضامينه. وقد ضبّطت أهدافه وحدوده جملة من التطورات الحاسمة على الصعيد السياسي والاجتماعي

(*) باحث بالمعهد العالمي للفكر الإسلامي في الولايات المتحدة الأمريكية. البريد الإلكتروني: khaled@

والثقافي في الوطن العربي والإسلامي. فمنذ أكثر من قرن ونصف والمشروع الإصلاحية التربوي يحتلّ المكانة الأولى لدى هذه النخبة من العلماء المصلحين والمجددين، "الذين اختلفت مفاهيمهم ومرجعياتهم، وتواصلت جهودهم وتسابقت من أجل انتشار الشعوب العربية والإسلامية من الوهن الذي أصابها في عصور التخلف والركود، وتسريع الجهود لتحقيق نهضة واسعة على كافة المستويات تكفل لها التحرر من ويل الاستعمار والخروج من هذا الجمود." (1)

ومع مطلع القرن العشرين ظهرت نخبة جديدة متميزة في هذا العمل الإصلاحية من أمثال العلامة الشيخ محمد عبده ومحمد رشيد رضا. وقد تعددت آراء هؤلاء المصلحين في طرق إصلاح التعليم، وتقاربت مناهجهم، بالرغم من تقاطع الأهداف والمقاصد.

وفي العصر الحديث تفاقمت أزمة التعليم وتشعبت ووصلت حدّاً غير مسبوق في التهميش والخروج عن مقاصده التربوية الأصلية. في هذا الصدد، يقول الدكتور حميدة النيفر مينا أسس هذه الأزمة التربوية: "بعد أن كان التعليم مجالاً موحّداً وصنعة أساسية من صنائع العمران تتكون من خلاله الشخصية الحضارية للجماعات، انشطرت المؤسسة التعليمية إلى شقين: شقّ مدنيّ يرمي إلى سعة الفكر في وجيز الوقت، وغايته القصوى التنمّية، وشقّ دينيّ قاعدته تركيز قيم التراث ونظامه الاجتماعي، ومقصده عقديّ وخلقّي. وقد حاول التصدي لهذا الفصام رجال الإصلاح في البلاد العربية منذ منتصف القرن التاسع عشر بدرجات متفاوتة من الاهتمام. لعلّ من أفضل ما دوّن في هذا الباب تأليف نادر المثل للعلامة التونسي محمد الطاهر ابن عاشور اختار له عنوان: أليس الصبح بقريب؟ اهتم المؤلف بهذا الموضوع في مطلع حياته العلمية قبل أن تتجه عنايته إلى تفسير القرآن، والأصول والمقاصد إدراكاً منه لمدى حساسية القضية وبالغ أثرها في حياة الناس ومستقبلهم." (2)

(1) الغزي، الطيب. مداخلة: قراءة في الفكر الإصلاحية للشيخ محمد الطاهر ابن عاشور، تونس: مركز الدراسات الإسلامية بالقيروان، 12 مارس 2007م، ص 1.

(2) النيفر، احמידة. الصبح القريب: أي تعليم اسلامي لمجتمع حديث، موقع الملتقي الإلكتروني، www.

ولذلك فإن هذا البحث يسعى إلى دراسة أعمال ابن عاشور حول إصلاح التعليم التونسي في تلك الفترة، ودراسة المقاصد التربوية من مشروعه التجديدي. فالمنهجية المعتمدة لهذا البحث منهجية استقرائية تحديداً في الجزء الأول منه، حيث نحاول تشخيص المشروع الإصلاحي في مجال التعليم كما يراه الشيخ الطاهر ابن عاشور في كتابه: "أليس الصبح بقريب؟" محاولين في ذلك الإجابة عن ثلاثة أسئلة هي:

- ما الخصائص الفكرية التي ميّزت ابن عاشور في رؤيته للإصلاح التربوي عن بقية المجددين المصلحين؟
- ما العوامل الأساسية التي أسهمت في تحديد أطروحات ابن عاشور واهتماماته في إصلاح التعليم؟
- كيف ضمّن ابن عاشور رؤيته الإصلاحية مناهج التعليم المعمول بها في جامع الزيتونة؟

أما الجزء الثاني من هذا البحث، فإنه يسعى إلى دراسة بعض المقاصد التربوية من المشروع الإصلاحي الذي رسم خطوطه ابن عاشور، معتمداً في ذلك الأسلوب الاستنتاجي والتحليلي سعياً للإجابة عن ثلاثة أسئلة أخرى هي:

- ما أهم المقاصد التربوية التي سعى ابن عاشور إلى تحقيقها من خلال مشروعه الإصلاحي للتعليم؟
- ما المصلحة الاجتماعية من مشروع الإصلاح التربوي؟
- ما المقصد التربوي من إصلاح مادتي العقيدة واللغة؟

أما الجزء الأخير من هذا البحث، فإنه يسعى إلى تلخيص هذه المقاصد التربوية لمشروع ابن عاشور الإصلاحي في مناهج التعليم، ومقارنته ببعض المشاريع الإصلاحية الأخرى. فقد أثبتت التجارب الإصلاحية التي لم يخطط لها جيداً في الوطن العربي والإسلامي قديماً وحديثاً أنها لم تعمر طويلاً، بل خلقت قطيعة مزمنة بين المادة العلمية وواقع المتعلم وذلك نتيجة انعدام روح التجديد فيها، وعدم التكامل بين المضمون والجوانب البيداغوجية.

أولاً: الخصائص والمميزات الفكرية

1. التيار الإصلاحى التجديدي:

تعدّ المدرسة الفكرية التونسية من أهم المدارس الإسلامية إعمالاً للعقل عند الاجتهاد في مجالات الفكر، فمنذ النصف الأول من القرن الماضي، شهدت الساحة التونسية ظهور نخبة من الأعلام والمفكرين في شتى المجالات الفكرية منها والأدبية، تميّزوا بالاستنارة وروح التجديد في أطروحاتهم؛ إذ لا شك أن هذه الخصائص هي في حدّ ذاتها، نتاج لعوامل عدة وتطورات سياسية، واجتماعية، وثقافية، ساعدت على إفراز رؤية تنويرية متميّزة تربط بين البعد التجديدي في الفكر الديني ببقية الأبعاد الأخرى المكوّنة للظاهرة الإنسانية، خاصة في تحديد علاقة الفرد بذاته وبمجتمعه.

وفي هذا الإطار يكفيننا أن نربط هذه المدرسة الفكرية بحركة الإصلاح التي تزعمها السيد جمال الدين الأفغاني، وتلميذه محمد عبده، وكذلك الشيخ رشيد رضا؛ إذ "سرى أثرها في النخبة التونسية سريعاً فأثر في الدعوات الإصلاحية التي جهروا بها ودعوا إليها"⁽³⁾ فكانت المدرسة التونسية من أكثر المدارس تقبلاً واستيعاباً لآراء وأفكار هذه الحركة الإصلاحية وتفاعلاً معها عن طريق صحفها "العروة الوثقى" و"المنار" بما نشرته هاتان الصحيفتان من آراء إصلاحية، ودعوات لإيقاظ العالم الإسلامي المهدد في كيانه الحضاري.

وفي هذا السياق نجد على سبيل المثال أطروحات الطاهر الحداد حول قضية المرأة، ونضالات الشيخ عبد العزيز الثعالبي السياسية، واجتهادات الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور المقاصدية. فهذه الموجة الإصلاحية تعدّ العامل الأساس في إحداث أثر ظاهر في تكييف فكر هؤلاء النخبة، ولا سيّما الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور، الذي كانت له اتصالات مباشرة بالشيخ محمد عبده، وذلك عن طريق المجالس العلمية والمحاضرات الفكرية التي كانت تعقد في الجمعية الخلدونية، التي كانت تتناول أهم قضايا الإصلاح السياسي والتربوي والاجتماعي في العالم

(3) الغالي، بلقاسم. شيخ الجامع الأعظم محمد الطاهر ابن عاشور: حياته وأثره، لبنان: دار ابن حزم للطباعة، ط1، 1997م، ص49.

الإسلامي. أما صلته المتينة بالشيخ رشيد رضا، وإن لم تكن مباشرة في تونس، إلا أنها تعدّ امتداداً للدعوة الإصلاحية التي أسسها الأفغاني وعبد، القائمة على منهج للإصلاح الموحد، وظهر ذلك جلياً في مقالات الشيخ ابن عاشور المنشورة في مجلة المنار.⁽⁴⁾

2. التكوين العلمي والاجتهادي:

نشأ الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور وترعرع في بيئة زاخرة العلم والأدب، شغوفة بالتألق والتميز، مما جعله مواكبا لعصره منشغلاً بقضايا مجتمعه، تهزّه عزّة المؤمن، وتدفعه همّة المسلم، وتثيره غيرة العالم، فلم يتوان لحظة في حمل همّ التونسيين خاصة والمسلمين عامة، وسخّر جهده وطاقته في الدفاع عن الإسلام والمسلمين وتغيير ما بالأمة من جمود وتخلف.⁽⁵⁾

وأما تكوينه العلمي والمعرفي، فإنه إلى جانب شيوخه الذين أخذوا بيده وأثاروا طريقه بالعلم وأطلعوه على قضايا عصره، فإنه منذ نعومة شبابه تميز الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور "بثقافة موسوعية شاملة وامت بين الديني والأدبي، بين الفكري والاجتماعي، إلى جانب استعداد نفسي وتدقّق علمي ومعرفي لافتين للنظر، كما حظي باطلاع واسع، وتمكن من وسائل الفهم والاستنباط، واعتداد بنفسه في إبداء الرأي واقتناص الحل، كل ذلك ساعده كثيرا على اختراق عديد المسائل والمواضيع بكفاءة وجرأة متميزتين."⁽⁶⁾ وفي هذا السياق ينقل محمد كرو وصفاً للشيخ محمد الخضر حسين وصف به الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور قائلاً: "شب الأستاذ على ذكاء فائق، وألمعية وقادة، فلم يلبث أن ظهر نبوغه بين أهل العلم، وقد امتاز بهمة طمّاحة إلى المعالي، وجدّ في العمل لا يمسّه كلل، ومحافظة على واجبات الدين وآدابه، وبالإجمال ليس إعجابي بوضاعة أخلاقه وسماحة آدابه بأقل من إعجابي بعبقريته في العلم."⁽⁷⁾

(4) الشنوفي، المنصف. "علائق رشيد رضا بالتونسيين"، حوليات الجامعة التونسية، ع4، 1967م، ص129.

(5) الغزي، الطيب. مداخلة: قراءة في الفكر الإصلاحي للشيخ محمد الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، ص3.

(6) المرجع السابق، ص2.

(7) أبو القاسم، محمد كرو: أعلامنا: محمد الخضر حسين، تونس: دار المغرب العربي، 1973، ص93-94.

كذلك إلى جانب الإشادة بالعقل ودوره في الإصلاح والتنوير، دعا الشيخ "إلى ضرورة الاجتهاد والاستنباط والنظر والاستدلال، فسعى إلى تنبيه المسلمين إلى ضرورة استعادة نهضتهم من خلال تحليل مقاصد الشريعة وأهدافها، وسلط الضوء على النظام الاجتماعي في الإسلام وأصوله،"⁽⁸⁾ وذلك بنزعه النقدية الصريحة في كل أعماله الفكرية والأدبية. كذلك "كان قيامه المبكر بالتدريس بالمدرسة الصادقية التي كانت تسيّر على غير منهج التعليم الزيتوني مناسبة للاتصال بصنف من التلاميذ من غير صنف تلامذة جامع الزيتونة، صنف كانت صلتهم باللغة الفرنسية والثقافة الأوروبية أوثق وأعمق من صلتهم باللغة العربية والثقافة الإسلامية."⁽⁹⁾ كما يبين أنه "لا شك أن هذه التجربة المبكرة في حياته قد فتقت وعيه على ضرورة ردم هوة وتجاوز فصام - كانا ما يزالان في بدايتهما، لكنهما قابلين للتوسع - بين تيارين رئيسيين: الأصالة ممثلاً في التعليم العربي الإسلامي، الذي كان جامع الزيتونة رمزه الأكبر وقناته الأساسية، وتيار المعاصرة الذي كانت المدرسة الصادقية حينها رمزه وإطاره بوصفها المؤسسة التي أنشئت أساساً لتدريس العلوم والمعارف الجديدة مزوجة مع العلوم الإسلامية، لتكون امتداداً وتعصيلاً للتعليم الزيتوني."⁽¹⁰⁾ إذا فهذه التجربة التي مارسها ابن عاشور، أكدت له القناعة الكاملة بضرورة الإصلاح وتصميمه على المضي قدماً في مشروعه الإصلاحية.

وقد كان ابن عاشور مؤهلاً للدخول في مجال الإصلاح من باب الواسع ف"الاستعدادات والمميزات والخصائص التي تكاملت في شخصية الشيخ الطاهر ابن عاشور، وتكوينه العلمي والمعرفي التي قد لعبت دوراً هاماً في إثراء تجربته،

(8) "العلامات التنويرية في تفكير الشيخ محمد الطاهر بن عاشور"، ندوة التنوير عند علماء الزيتونة في النصف الأول من القرن العشرين، جريدة الشرق الأوسط، أفاق إسلامية، الثلاثاء 08 جمادى الأولى 1429/13 ماي 2008م، ع10759.

(9) الميساوي، محمد الطاهر. الشيخ محمد الطاهر بن عاشور والمشروع الذي لم يكتمل، عنوان الدراسة التي أوردها المؤلف في تحقيقه لكتاب:
- ابن عاشور، محمد الطاهر. مقاصد الشريعة الإسلامية، تحقيق ودراسة: محمد الطاهر الميساوي، عمان: دار النفائس، ط2، 2000م، ص27-28.

(10) المرجع السابق، ص28-29.

وربطها نظريا وميدانيا بالواقع المعيش ... جعلته يتسم بأهم سمات رجال الإصلاح ومقوماته، المؤمنين بأن الإسلام سيرورة موصولة لم ينقطع لها مدّ،".⁽¹¹⁾

3. مجالات الإصلاح:

لقد كان الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور سبّاقا في تخطّي مشاريع الإصلاح والمضي فيها قدما، تتمثل في تلّكم المجالات التي استقطبت اهتمامه، والتي بدوره سعى لإصلاحها وتمييز بها عن سائر علماء عصره. فمزاولته لمهنة التعليم قد دفعته "بوافر حاجته للإصلاح الواسع النطاق"⁽¹²⁾ وهي جملة من القضايا الحساسة تكمن في نزوعه التنويري المتمثل في دعوته إلى إصلاح الفكر الإسلامي، وبناء إنسان جديد يتخذ من التربية والتعليم وسيلة لتحقيق ذلك. "فاهتمامه بإصلاح التعليم وشؤون المرأة مثلا، وعديد المسائل الاجتماعية، ضمنها في عدة مؤلفات ومقالات وتحقيقات بالصحف والمجلات، تناولت تلّكم القضايا والمشاكل بمنهج متميز في البحث والنظر ورؤية فاحصة نقدية."⁽¹³⁾

إن هذه المجالات العلمية تصف لنا بوضوح مدى وعي ابن عاشور الكامل بمقتضيات العصر ومتطلباته، مع الاعتبار أن "مراعاة الظروف وأحوال الزمان وعدّ التغيير الاجتماعي من العوامل الأساسية في تحديد المواقف، وإعادة النظر في الآراء لنسبيتها وعدم الوثوقية فيها."⁽¹⁴⁾ أما اعتماده على البعد المقاصدي في مجمل كتاباته النقدية وفتاواه، فقد جعل ابن عاشور من عملية الاجتهاد والتوليد والتجديد، خاصة عند تناوله لنصوص القرآن والسنة، أداة منفتحة وقابلة لعديد الدلالات.⁽¹⁵⁾ كما أنه في سبيل تيسير الحوار بين الإسلام والعالم المعاصر، وعدم الاكتفاء بالتظير، وهو شأن عديد العلماء، ورجال الإصلاح، فقد حرص الشيخ على البعد العملي التطبيقي، خاصة في مشروعه الإصلاحية التعليمي، وفي هذا

(11) الغزي، الطيب. مداخلة: قراءة في الفكر الإصلاحية للشيخ محمد الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، ص 4.

(12) ابن عاشور، مقاصد الشريعة الإسلامية، مرجع سابق، ص 8.

(13) الغزي، الطيب. مداخلة: قراءة في الفكر الإصلاحية للشيخ محمد الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، ص 3.

(14) المرجع السابق، ص 5.

(15) المرجع السابق، ص 4.

الصدد ساهم الشيخ لمدة نصف قرن "بشأن خصب في جميع المبادرات الرامية إلى تنظيم هياكل التعليم الزيتوني، وتدبير برامجه قصد النهوض به وتطويره." (16) وبهذا الجهد فقد قام الشيخ بثورة على "الفاقد من الآراء والمواقف والجرأة والنقد على ما سن من قوانين وبرامج إصلاحية للتعليم والقضايا الاجتماعية سيما أيام خير الدين ومن سبقه." (17)

ثانياً: دوافع الإصلاح

لا شك في أن العلم والتعليم يحتلان المكانة الكبرى في المجتمعات الإنسانية المتقدمة، بل يعدّان من أهم مسالك النهضة وأسبابها، فابن عاشور يعتقد أن التعليم "يفيد ترقية المدارك البشرية وصقل الفطر الطيبة، لإضاءة الإنسانية وإظهارها في أجمل مظاهرها، فيخرج صاحبها عن وصف الحيوانية البسيط وهو الشعور بحاجة نفسه خاصة، إلى ما يفكر به في جلب مصلحته ومصلحة غيره، بالتحرز عن الخلل والخطأ بقدر الطاقة، وبحسب منتهى المدنية في وقته." (18) كما يؤمن ابن عاشور "أن العلوم في نشوئها ونموها وتكاملها مرتبطة بحاجة الحياة الاجتماعية، إذ تختلف أعدادها باختلاف الحاجات الداعية إليها." (19) وعليه "فإن دراسة تاريخ العلوم للوقوف على أحوال تطورها وأطوار نموها، ولتحديد علل قصورها وأسباب تقهقرها، تصبح مطلباً رئيساً من مطالب أي محاولة للنهوض والإصلاح؛" (20) لذلك شرع الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور في تخطيط مراحل الإصلاح، وتطبيق النظم التي يراها كفيلة بتحقيق الهدف الذي يصبو إليه، للخروج بالتعليم الزيتوني من كبوته بعد أن تكلم عن أساليبه ومناهجه

(16) الشنوفي، المنصف. علائق رشيد رضا بالتونسين، مرجع سابق، ص6-7.

(17) الغزي، الطيب. مداخلة: قراءة في الفكر الإصلاحي للشيخ محمد الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، ص6.

(18) ابن عاشور، محمد الطاهر. أليس الصبح بقريب؟ التعليم العربي الإسلامي، دراسة تاريخية وآراء إصلاحية، تونس: دار سحنون للنشر والتوزيع، 2006م، ص13.

(19) المرجع السابق، ص9.

(20) المرجع السابق، ص9.

المتخلفة ناقداً إياه في كتابه: "أليس الصبح بقريب؟" الذي ألفه في الفترة (1903-1910) إبان اضطرابات طالبيّة شلّت التعليم لأشهر عدة في الزيتونة، أقدم جامعة عربية إسلامية، فإنّه لم يلمح إلى تلك الأزمة إلّا لماماً.⁽²¹⁾

ويبدو أن الظروف العامة كانت تمنع نشر الآراء الإصلاحية الجريئة، مما أبقى الكتاب بعيداً عن أيدي القراء فترة غير قصيرة من الزمن، إلى عام 1968 وقد ذكر الشيخ في المقدمة ذلك بقوله: "وكان من العزم تهذيبه وإصداره فحالت دون ذلك موانع جمّة لم تزل تطفو وتركد، وتغفو وتشهد، غير أنني لم أدع فرصة إلّا سعيت إلى إصلاح التعليم فيها بما ينطبق على كثير مما ضمنه هذا الكتاب، فاستتبّ العمل بكثير من ذلك وبقي كثير بحسب ما سمحت به الظروف."⁽²²⁾

وخلاصة القول أن هذا الكتاب يعرض عرضاً دقيقاً "للأطوار التاريخية التي مرّ بها التعليم الإسلامي ومواطنه ومؤسساته ونظمه في مختلف الأقطار الإسلامية عبر القرون، ذاكراً العلوم التي كانت تدرس فيه، راصداً الكتب المستخدمة في التدريس، ومتتبّعاً في بعض الأحيان سير العديد من رموزه وأساطينه من العلماء، ومبرزا ومقوما لأعمالهم وآثارهم. ونحن واجدون في ثنايا ذلك العرض التاريخي لمحات تدل الأريب، ولا يحار في توسعها الرأي المصيب عن الأوضاع الاجتماعية والأحوال السياسية التي اكتتفت ذلك التعليم، أو رافقت مسيرته مُيسّرة نموه واكتماله، أو معطلة لهما ومعيقه؛"⁽²³⁾ وأبرز ما يذكر في هذا الصدد "حرص المؤلف على معالجة فلسفية وحضارية لمسألة التعليم مع استيعاب لتاريخ المؤسسة لدى المسلمين والفرس واليونان وأوروبا الحديثة. لكن السؤال الناظم لهذا الأثر بكل فصوله، هو البحث عن أسباب فساد التعليم في بلاد المسلمين وكيف تتمّ معالجتها؟"⁽²⁴⁾

ومهما يكن من أمر، فإن القيمة العلمية والتاريخية التي يحتويها هذا الكتاب، لا تنحصر في أنه يحمل في طياته تجربة خاصة بالتعليم التونسي فقط، بل

(21) النيفر، الصبح القريب: أي تعليم إسلامي لمجتمع حديث، مرجع سابق.

(22) ابن عاشور، محمد الطاهر. أليس الصبح بقريب؟، ص 21.

(23) الميساوي، الشيخ محمد الطاهر بن عاشور والمشروع الذي لم يكتمل، مرجع سابق، ص 32.

(24) النيفر، الصبح القريب: أي تعليم إسلامي لمجتمع حديث، مرجع سابق.

"إن كثيراً من الأنظار والأفكار التي يحتوي عليها ما تزال ذات أهمية كبرى بالنسبة إلى مشاغل الفكر الإسلامي. حاملاً معه سؤال النهضة الكبير بأشكالياته وتحدياته." (25) يبين الدكتور الميساوي الأسباب التاريخية والحضارية التي دفعت ابن عاشور للقيام بهذا العمل، إذ يقول: "فدعوته إلى الإصلاح وسعيه لإيقاعها فعلاً كانا إذا نابعين من رؤية تاريخية وحضارية شاملة أدرك بمقتضاها التحولات العميقة التي حصلت في صميم الاجتماع الإسلامي وفي غيره، مما اتصل به وتفاعل معه وتأثر به وخاصة بالمجتمع الأوروبي، وهي تحولات اقتضت - كما أكد هو نفسه - بدلاً في المفاهيم والذهنيات، وتطوراً في الحاجات، وتجديداً في الأساليب." (26) كذلك يبيّن "وجوه الإصلاح المطلوب وتقديره للعلل التي قعدت بالتعليم العربي الإسلامي في تونس وفي غيرها من بلاد الإسلام، فيقومان على رؤية شاملة لأسباب تأخر ذلك التعليم." (27) يقول ابن عاشور: "الأسباب العامة التي قضت بتأخر المسلمين على اختلاف أقاليمهم وعوائدهم ولغاتهم،" (28) وتحديدًا "الأسباب الراجعة إلى تغير نظام الحياة في أنحاء العالم، تغيّراً استدعى تبدل الأفكار والأغراض والقيم العقلية، وهذا التغير قد استدعى تغيير أساليب التعليم، ومقادير العلوم المطلوبة، وقيمة كفاءة المتعلمين لحاجات زمانهم." (29)

وفي هذا السياق يبدو ابن عاشور "غير مطمئن إلى جدوى تلك المحاولات الإصلاحية للتعليم العربي الإسلامي ونجاحاتها؛ إذ إنه غلب عليها الاهتمام بالجوانب الشكلية والخارجية، وفاتها أمر جوهرى حاول هو أن يستوفي النظر والقول فيه، ذلكم هو جانب الأوضاع الداخلية والشروط الذاتية لذلك التعليم." (30) كما اهتم الشيخ ابن عاشور عند تأليفه لهذا العمل التربوي بدراسة ومعرفة "أحوال العلوم الإسلامية، وطرائق تعليمها، وأسباب النهوض

(25) الميساوي، الشيخ محمد الطاهر بن عاشور والمشروع الذي لم يكتمل، مرجع سابق، ص 30.

(26) المرجع السابق، ص 31-32.

(27) المرجع السابق، ص 31.

(28) ابن عاشور، أليس الصبح بقریب، مرجع سابق، ص 100.

(29) المرجع السابق، ص 100.

(30) الميساوي، الشيخ محمد الطاهر بن عاشور والمشروع الذي لم يكتمل، مرجع سابق، ص 48.

والانحطاط العارضين لها في عديد الأعصر،" (31) وبهذه فقد ضمن الشيخ رؤيته لإصلاح التعليم الزيتوني، حيث حدد في هذا الكتاب أسباب تخلف العلوم بعد أن صنفها ورتبها في أبواب وفصول، مؤمناً أنّ إصلاح حال الأمة لا يكون إلا بإصلاح مناهج التعليم والقيام على هذا الجانب. وكذلك لأجل تيسير الحوار بين الإسلام والعالم المعاصر، فأسهّم متفانياً مدة نصف قرن بنشاط خصب في جميع المبادرات الرامية إلى تنظيم هياكل التعليم الزيتوني، وتدبير برامجه قصد النهوض به وتطويره. (32)

ثالثاً: ملامح الإصلاح التربوي

الملامح الأساسية للمشروع الإصلاحية التربوي الذي سعى الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور إلى تحقيقه، يكمن في إصلاح "نظام التعليم ودرجاته، والكتب الدراسية وأساليب التدريس وفروع المدارس التعليمية، والمدرسين من حيث تأهيلهم ومدى مناسبتهم لدرجات التعليم ومستويات الدارسين، وتراتب المعارف التي تدرس." (33) ولذلك فقد هياً الشيخ لجاناً من شيوخ الزيتونة لمراجعة الكتب الدراسية على مختلف مستوياتها واستبدالها نظراً لقدم استعمالها منذ عصور ماضية. وبهذا العمل، وضمن حصيلة أفكار ورؤية ثاقبة، "سار الشيخ على خطى أسلافه في اهتمامه بإصلاح التعليم التونسي، فكان مشروعه امتداداً لبرامج خير الدين باشا مؤسس المدرسة الصادقية، وسالم بوحاجب شيخ الزيتونة الأكبر، ومحمود قابادو أحد رموز المدرسة الحربية بباردو. كما تأثر بإصلاحات الشيخ محمد عبده بالأزهر، لكنه أضفى على عمله صبغة تجديدية أكثر انفتاحاً ومواكبة لهماوم العصر." (34) وبتتبعنا لأبواب الكتاب وفصوله يمكننا الوقوف على أن الملامح العامة لمشروع الشيخ التعليمي تنحصر في ثلاثة ملامح:

(31) المرجع السابق، ص 48.

(32) الشنوفي، المنصف. علائق رشيد رضا بالتونسيين، مرجع سابق، ص 6-7.

(33) ابن عاشور، أليس الصبح يقرب، مرجع سابق، ص 13.

(34) الغزي، الطيب. مداخلة: قراءة في الفكر الإصلاحية للشيخ محمد الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق،

ص 4.

أولها: عرضه عرضاً وافياً مع النقد لواقع التعليم الزيتوني في تلك الحقبة، وذلك بكشف عيوبه وأسباب تأخره مبيّناً نوعية الخلل وأصله الذي يتمثل في "فساد المعلم، وفساد التأليف، وفساد النظام العام." (35) ومؤكداً أنه يعود إلى محتوى البرامج وأسسها التي بنيت عليه، وعدم الانضباط في اختيار المادة التدريسية. فالتلميذ يتعلم باختياره، والمدرّس غير مقيد بمنهج واضح لتدريس تلك المادة. كذلك خلوّ هذه البرامج التعليمية من مادة الآداب وتهذيب الأخلاق وشرح العوائد النافعة. (36)

وثانيها: خلوّ تلك النوعية من العلوم وطريقة تعليمها من النقد البناء في المرتبة الأولى، وما يقرب منها. وهي من الأسباب النفسية والفكرية العائدة إلى البيئة العلمية ذاتها التي تتمثل في التمسك و"الإعجاب بآراء المتقدمين كيف كانت، وتنزيهها عن الخطأ وإحصارها في نقل واحد عن الآخر." (37) وعندها يخرج الطلبة بعيدي النظر عن فكرة الإصلاح وإدراك محاسن الأحوال ومساوئها، وعن الاستعداد للحاق بأساطين الأمة، يخرجون ضعاف البصائر ضيقي الأفكار، وهذا خلل بالمقصد من التعليم وهو إيصال العقول إلى درجة الابتكار. (38)

وثالثها: خلوّ التعليم من الاطلاع على أحوال الأمم الماضية، والأمم المعاصرة، وتاريخ الحضارات، والتاريخ الإسلامي، وتراجع رجاله. كما شن هجوماً لاذعاً على الزهد في العمل بعلمي النحو والصرف، والعجز الغالب على الإنشاء والتحرير. (39) وهو ناتج عن الأوضاع الاجتماعية والسياسية والحضارية المتدهورة التي أثرت سلباً على توقف مسيرة العلوم.

أما ما يتعلّق بالمنهج والطرق التعليمية، فنلاحظ أن الشيخ ينبّه إلى عديد من المفاسد منها:

(35) ابن عاشور، أليس الصحيح بقريب، مرجع سابق، ص 101.

(36) المرجع السابق.

(37) المرجع السابق، ص 14.

(38) المرجع السابق، ص 14.

(39) المرجع السابق، ص 14.

1. غياب خطة تعليمية ووضع مراقبة صحيحة للتعليم، واعتماد أسلوب الإلقاء والإملاء، دون حوار ونقاش، بحيث يكتفي المدرّس بإلقاء المسائل العلمية والاجتهاد في إيفهامها، والتلاميذ يستمعون، ومما جاء في نقد الشيخ لذلك قوله: "ولا شك أن الغلو في الطريقة الاستحضارية، يتعسر معه إشراك الطريقة النظرية؛ لأنّ الأولى تعتمد المسارعة للاطلاع على الكتب والإكثار من تكريرها، والثانية تقتضي البحث والتأمل فيها، والواجب أن يكون التعليم نظرياً وأن يمزج بالاستحضار."⁽⁴⁰⁾ يُضاف إلى ذلك عدم ملاءمة الدروس لمستوى التلاميذ في المضامين والمناهج والوسائل التعليمية.

2. وأمّا ما يتعلق بالمدرّسين، فالملاحظ أن الشيخ يوجّه نقداً شديداً إليهم؛ إذ يقول: "جهل المعلم أو المؤلف أو واضع نظام التعليم بمراتب الأفكار ومقدار قبولها، وبمراتب العلوم بالنسبة إلى قابلية الأفكار."⁽⁴¹⁾ من ذلك: تنبيهه إلى ضعف الملكات اللسانية والقصور في اللغة لدى مدرسي العلوم الشرعية بالزيتونة، وعجزهم عن التعبير بكلام عربي فصيح؛ وعدم انضباط مدرسي التطوع في ملازمة التدريس، وتخلفهم عن الحضور لاهتمامهم بأعمال ومسؤوليات أخرى كشهادة العدل ونحوها. وكراهيتهم النظام والقوانين، وسوء الإلمام بوجوب العناية بالتعليم، وعدم مراعاة مستوى تلاميذهم وتقديم معلومات لا يفهمون المراد منها، مما قد يدفعهم إلى اليأس أو القناعة بما لا يفهم، وتطوير الدروس وتمطيطها بالمسائل السطحية، وإضاعة الوقت في القشر دون اللباب، والتسليم والثوقية بما يقول المؤلفون دون نقد أو تمحيص أو فصل بين صحيح ومرجوح.⁽⁴²⁾

3. وأمّا ما يتعلق بالتأليف فقد أكد أنّ الكتب هي المعلم الأول للتلميذ والمذكّر المرشد للمدرّس، لذلك فهي أجدر بالإصلاح؛ إذ إن إصلاحها يصل بنا إلى غرضنا، وإن بقي المعلم على حاله، وعدّ إصلاح الكتاب الخطوة الأولى بل نصف المسافة في إصلاح العلوم.⁽⁴³⁾

(40) المرجع السابق، ص 136.

(41) المرجع السابق، ص 231.

(42) المرجع السابق، ص 231.

(43) المرجع السابق، ص 231.

4. اقتراح رؤية إصلاحية شاملة، وذلك بترك التطويلات التي كان يسلكها المتوسطون من العلماء بزيادات خارجة عن الموضوع وتخليط العلوم. وتحديد التأليف المعتمدة وعدم ترك اختيارها للمدرسين. وتأسيس لجنة من العلماء للنظر في خلل الكتب وإصلاحها، وإحياء ما اندرس منها، وترجمة ما نحتاجه من كتب العلوم مع مراعاة مقتضى العصر. (44)

5. وأما ما يتعلق بالامتحانات فقد لاحظ عدة نقائص في طرق التقييم وتراتبته، منها: كثرة الأسئلة دفعت المترشح إلى استحضار مواد متعددة، وأفضى إلى تكوين سطحي تلاشت معه المكتسبات المعرفية. ونوعية الأسئلة من حيث كونها حاملة على الحفظ والاستظهار دون فهم ولا نقد، وقصور التلميذ وتطبيق القواعد لانشغاله بالحفظ والاستظهار، ومطالبة التلميذ بحلّ الألغاز وغرائب المسائل بدل مطالبته بالإجابة عن مواضيع متوسطة يحتاج إليها، ولجوء التلميذ إلى ارتكاب الغش في الامتحانات تبعاً لمقتضى الأسئلة الحامل على مجرد الحفظ ولسوء يقظة المراقبين. (45)

6. لم يكتف الشيخ بتوصيف الحالة التي كانت عليها الامتحانات ونظامها، بل اقترح عدّة أمور منها: التركيز في الامتحان على مدى قدرة المترشح على الفهم والنقد لا الحفظ فحسب. وعدم التساهل في إسناد الشهادة دون رأفة أو تخفيف للمحافظة على المستوى العام حتى يكون المتخرج من الزيتونة ذا ذهن قوي، وعقل مدرك للحقائق، قدير على إيصالها إلى الأذهان. (46)

وخلاصة المقال يلاحظ "أن الشيخ حرص على تفعيل برنامجه الإصلاحي حيث تولى مشيخة الجامع الأعظم بالزيتونة، ومرر كثيراً من فصول كتابه: "أليس الصبح بقريب؟" رغم تأخر صدوره "وإن المتأمل في توجهه الإصلاحي التربوي يلاحظ نفساً تربوياً تحديثياً لدى الشيخ، وإطلاً على بيداغوجيا التعليم والتقييم

(44) المرجع السابق، ص 243.

(45) المرجع السابق، ص 243.

(46) المرجع السابق، ص 243.

منذ وقت مبكر. (47) وهو دليل واضح على مكانة إصلاح التعليم وأهميته في فكر الشيخ الطاهر بن عاشور في تلك الفترة. إضافة على ذلك كله فإن اهتمامه بالمرأة في هذا الصدد "لا يقل عن ذلك شأنًا، فهما (الرجل والمرأة) متوازيان لديه باعتبارهما أهم قضايا المجتمع، ولاشغاله بهما سويًا منذ مطلع شبابه في بداية القرن العشرين جاء في كتابه: "أصول النظام الاجتماعي في الإسلام" (48) يقول الشيخ: "وكيف تعزل المرأة عن الإصلاح جانبًا وهي متولية تربية الأبناء الذين هم بقاء النوع، فهي إذن غرس جذور الأخلاق فاضلة وسافلة." (49) وفي هذا المجال فقد حرص شيخنا على تفعيل رؤيته الإصلاحية للمرأة على تعليمها بالتساوي مع الرجل، إذ يقول: "إن بقاء المرأة منحة غارقة في الجهل، إبقاء لها في حالة منحة، وذلك سلب منها الأهلية لتربية أولادها تربية كاملة، وسياسة بيتها على الوجه الأكمل، وسلب الأمة الانتفاع بصنف كامل من البشر." (50) وقد ذكر الأستاذ الطيب الغزي هذه النقطة في مداخلته: "و حين تولى رئاسة مشيخة جامع الزيتونة للمرة الثانية سنة 1945، عمل من منطلق مسؤوليته على تفعيل برنامجه الإصلاحية في التعليم، فبادر بتمكين المرأة من التعلم بالزيتونة، ففتح سنة 1949 فرعًا للفتيات بالسيدة عجولة، وبهذه المناسبة التاريخية أدلى الشيخ في جريدة اللواء بحديث بين فيه "أن فكرة تربية المسلمة تربية إسلامية صحيحة، ليست وليدة اليوم، بل هي قديمة عندي، آمنت بها وسعيت في تحقيقها قبل أن أحمل أدنى مسؤولية، وقد حررت تقريرًا، إلا أن الظروف لم تساعد إذًا على إبراز هذه الفكرة إلى حيز العمل." (51)

(47) الغزي، الطيب. مداخلة: قراءة في الفكر الإصلاحية للشيخ محمد الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، ص 7.

(48) الغزي، الطيب. مداخلة: قراءة في الفكر الإصلاحية للشيخ محمد الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، ص 9.

(49) ابن عاشور، محمد الطاهر. أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، تونس: الشركة التونسية للتوزيع، ط 2، ص 97.

(50) المرجع السابق، ط 2، ص 97.

(51) الغزي، الطيب. مداخلة: قراءة في الفكر الإصلاحية للشيخ محمد الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، ص 9.

رابعاً: المقاصد التربوية من إصلاح التعليم

إن المقصد العام والأساس من عملية الإصلاح، يكمن في النهوض بالمستوى العلمي، والمحافظة على المكانة الاجتماعية والحضارية لجامع الزيتونة بوصفه مؤسسة تربوية إسلامية. لذلك كان الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور شديد الحرص على إصلاح التعليم الزيتوني، للمحافظة على الصبغة الشرعية والمكانة التاريخية لهذه المؤسسة العريقة. وينعى على الحالة التي وصل إليها هذا التعليم " بإهمال الآداب والأخلاق، اعتقد الناس بأنّ العلم منحصر في ما تتضمنه القواعد العلمية كالنحو والفقهاء... فمالت طائفة من العلماء إلى الحفظ والاستكثار من فروع المسائل ومن عدد العلوم... وغياب حرية النقد الصحيح في المرتبة العالية وما يقرب منها وهذا خلل بالمقصد من التعليم، وهو إيصال العقول إلى درجة الابتكار ومعنى الابتكار أن يصير الفكر متهيئاً لأن يوسّع المعلومات، ولا يكون ذلك إلاّ بإحداث قوة حاكمة في الفكر"⁽⁵²⁾ وهذا يقتضي إعادة تصميم برامج التعليم على أسس عملية وموضوعية يقول ابن عاشور: " واجب التعليم هو التدريب على العمل، وحبّ التناسب في المظاهر كلّها وإدراك الأشياء على ما هي عليه، والتباعد عن الخفّة والطيش وعن الجمود والكسل وسوء الاعتقاد في الأمور الوهميّة بحيث يكون العدل في جميع الأشياء صفة ذاتيّة."⁽⁵³⁾ وهذه هي حقيقة التحدي الذي يواجه المتعلمين من الزيتونة في تلك الفترة في تعاملهم مع ثقافتهم وخصوصياتهم، للخروج من هذا الفصام التعليمي وعدم الانفاق على دلالتى الموضوعية العلمية والانتماء الثقافي.

1. المصلحة الاجتماعية من مشروع الإصلاح التربوي:

بالرغم من أن المشروع الإصلاحي برمته له مقاصد تربوية فإنه يرتبط أولاً بالمصلحة الاجتماعية في أهدافه الأساسية، إلا أنّ ابن عاشور سعى أن تكون هذه المصلحة في إصلاح المناهج، لها علاقة مباشرة بواقع الإسلام والمسلمين. فقد خصص كتباً دراسية شهد لها العلماء بغزارة العلم، وإحكام الصنعة، وتنمية الملكات في التحرير، حتى يكون الطالب قادراً على فهم ما درس من المسائل

(52) ابن عاشور، أليس الصبح بقريب، مرجع سابق، ص 124.

(53) المرجع السابق، ص 124.

العلمية وتمحيصها ونقدها، لا تخرجه عن واقعه المعاش. ولتحقيق هذا المقصد أيضاً، فقد دعا ابن عاشور المدرسين إلى الابتعاد عن طرق التلقي والإكثار من الأشغال التطبيقية، وذلك قصد تدريب ملكة الطالب على الفهم المستقل، بدل شحن ذاكرته بمعلومات كثيرة قد لا يحسن التصرف فيها في حياته اليومية، وتدريبه بالتعويل على نفسه في التحصيل على ثقافته العامة والخاصة. كما حث المدرسين على نقد الأساليب والمناهج الدراسية، واختيار أحسنها أثناء الدرس ومراعاة تربية الملكة.

وكانت دعوته للإصلاح لها بعدان: تنظيري وتطبيقي ميداني. إنَّ المعالجة الخلدونية لقضايا المؤسسة التعليمية الإسلامية في سياقها الحديث، أصبغت على مشروعه رؤية متكاملة تجاوزت المسوّغات المحليّة، وربطت بين التعليم والعمران. وتوصلت إلى زوايا تحليل تتيح فهماً أعمق وحلولاً أكثر جرأة. ذلك أنّ العلم بالنسبة للإنسان الفرد، "ليس رموزاً تحلُّ ولا كلمات تُحفظ ولا انقباضاً وتكلفاً، ولكنه نور العقل واعتداله وصلوحيته لاستعمال الأشياء في ما يحتاج منها، فهو استكمال النفس والتطهّر من الغفلة والتأهّل للاستفادة والإفادة."⁽⁵⁴⁾ وهو بالنسبة للمؤسسة التعليمية تجديدٌ يناسب مستجدات العصر، وبناءً متواصل للمجتمع.

أما عناية ابن عاشور بدور الحرّيّة فهي عنده: "وصف فطري نشأ عليه البشر وبه تصرفوا في أول وجودهم على الأرض،"⁽⁵⁵⁾ وهي قيمة أخلاقية أساسية لها علاقة مباشرة بالعقيدة الإسلامية للنهوض بالمسلمين واستعادة دورهم ومكانتهم المرموقة بين المجتمعات. ثم يقرر أنّ الحرية أصل من أصول التعامل في الإسلام، فيقول: "تنقسم الحرية إلى حرّيّة اعتقاد، وحرّيّة تفكير، وحرية قول، وحرية فعل، وكلّ هذه الحريات الأربع محدودة في نظام الاجتماع الإسلامي ما حدّدت به شريعة الإسلام أعمال الأمة الإسلامية في تصرفاتهم، الفردية والجماعيّة في داخل البلاد."⁽⁵⁶⁾

(54) ابن عاشور، أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، مرجع سابق، ص 45.

(55) المرجع السابق، ص 152.

(56) المرجع السابق، ص 170.

وبهذا المفهوم يبدي ابن عاشور تسامحاً في حرية الاعتقاد وتصدياً لمقولة التكفير فيقول: "فللمسلم أن يكون سنياً سلفياً، أو أشعرياً... وقواعد العلوم وصحة المناظرة تميّز ما في هذه التحل من مقادير الصواب والخطأ، أو الحقّ والباطل، ولا نكفر أحداً من أهل القبلة." (57) فالتكفير - في رأيه - "قولة ناشئة عن قلة تأمل وإحاطة بموارد الشريعة وإغضاء عن غرضها،" (58) وإنّ التوسّل بهذه المقالة لدليل قاطع على "ضعف حجة أصحابها وقصورهم عن إقامة الحق، إذ تنطوي في حقيقتها وجوهرها على انتصار للذات لا للدين، كما أنّها تسوّغ الاعتداء والظلم وتلبسه لبوس الدين، وتعطي للاستبداد طابع الشرعية، وتحوّل مجال الحوار إلى مجال تناز، وتنقل الاختلاف الفكري إلى صراع وتقاتل، وتصبح فئات المجتمع مشحونة ضد بعضها بعضاً، فتقلب قوى المجتمع وطاقاته إلى عوامل تآكل داخلي بدل أن تكون عامل قوّة ومنعة. وذلك أبرز عامل من عوامل الضعف والانهار." (59)

بهذا يؤكد ابن عاشور على "مفهوم المغايرة والاختلاف في الإسلام، لوضع حدّ لما عرفه المسلمون من فتن على امتداد تاريخهم، بسبب الانتماءات المذهبية والاختلافات بين الفرق، كالصراع بين السنة والشيعة، أو الخلاف بين المعتزلة والخوارج. ويؤكد مفهوم التسامح باعتباره قيمة من القيم التي تأسست عليها الرسالة الإسلامية وليتصدى لمقولة التكفير التي يستعملها بعض المخالفين في وجه من اعترضهم في آرائهم، ليبرروا مواقفهم الدينية استناداً إلى ذرائع ظاهرها ديني، وباطنها سياسيّ عشائري." (60)

2. المقاصد التربوية من إصلاح مادتي العقيدة واللغة:

إن إصلاح مادة العقيدة في التعليم التونسي يتصدر إصلاحات ابن عاشور التربوية. فالإسلام في نظره، اهتم "بتوضيح العقيدة وتحديد معانيها والحرص على

(57) المرجع السابق، ص 170

(58) ابن عاشور، أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، مرجع سابق، ص 70.

(59) المرجع السابق، ص 70.

(60) العلامات التنويرية في تفكير الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، مرجع سابق.

تلقيها وإقامة دلائلها." (61) وكثيراً ما يقرر ابن عاشور أنّ "العقيدة من التفكير،" (62) ولا يكون إصلاح التفكير إلا عن طريق إصلاح العقيدة؛ إذ يقول: "لأنّي نظرت في هذا إلى ما امتازت به العقيدة من كونها تفكيراً مقدّساً ومختصاً بموضوع معين، وهو وجود الله." (63) كما بيّن أنّ "إصلاح التفكير المبحوث عنه هنا، هو التفكير فيما يرجع إلى الشؤون في الحياة العاجلة والآجلة يأتي بتحصيل العلم بما يجب سلوكه للنجاح في الحياتين كي يسلم صاحبه من الوقوع في مهاوي الأغلاط وفي الحياة العاجلة وفي مهاوي الخسران في الحياة والآخرة." (64) وبهذا يقرر ابن عاشور أنّ إصلاح التفكير من أهم ما قصده الشريعة الإسلامية في إقامة نظام الاجتماع من طريق صلاح الأفراد، (65) ويتمثل في "تلقي العقيدة، وتلقي الشريعة، والعبادة، وتحصيل النجاة في الحالتين، والحزم، والمعاملة، والأحوال العامة، ومصادفة الحق في المعلومات." (66) ويؤكد أنّ الأمة الإسلامية ذات دين يضمن لها "صحة التفكير في كلّ النواحي الدينية غير مشوبة بخليط الخطأ في فهمه حق فهمه، لتوقن بأنّ تراجعها القهقري له مزيد اتصال بنذ هذا الأصل عندهم إلى الوراء،" (67) وعليه "فأزمة المسلمين إذاً تعود بالأساس في رأي ابن عاشور إلى تفريطهم في أخلاقهم الدينية، فلأزمة روحية في الأصل، لكنه عند ربط العمل بالمعتقدات والأفكار في الإسلام، يعالج جانباً من أدوار المجتمع الإسلامي كما يراها." (68)

إنّ من أهم المحاور التي سعى ابن عاشور إلى إصلاحها وترسيخها في تدريس مادة العقيدة، تتمثل في إعادة النظر في مفهوم العمل كقيمة أخلاقية

(61) ابن عاشور، أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، مرجع سابق، ص 49.

(62) المرجع السابق، ص 51.

(63) المرجع السابق، ص 51.

(64) المرجع السابق، ص 51.

(65) المرجع السابق، ص 52.

(66) المرجع السابق، ص 53.

(67) المرجع السابق، ص 53.

(68) العلامات التنويرية في تفكير الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، مرجع سابق.

"تجري على حسب معتقداتهم وأفكارهم،"⁽⁶⁹⁾ والتوكل كقيمة أخلاقية تدعو إلى "الاعتماد على الله في تحصيل المرغوب من الدنيا أو الآخرة،"⁽⁷⁰⁾ وذلك قصد إصلاح الوازع العقدي والنفسي لدى الفرد والمجتمع وربطها بالعمل. فالعامة من الناس في نظره لم يدركوا المعنى القرآني لمفهوم التوكل والرضا بالقضاء، وعليه فإنه يقرر "أنهما خصلتان من أعظم الأخلاق الإسلامية، لكن الجمهور أساءوا وضعها في مواضعها، وشاع سوء الوضع بينهم حتى صار كاليقين، فكان ذلك سبب نكبات كثيرة،"⁽⁷¹⁾ وهي تتفق مع معنى التوكل المقترن بالاستسلام وال فشل والقعود عن العمل، مؤكداً أنَّ من المواصفات الأساسية الهادفة لمفهوم العمل تكمن في تحقيق النظام والانضباط في التوقيت، واحترام الدوام، وترك الكلفة والمبادرة والإتقان.⁽⁷²⁾

ويربط ابن عاشور هذه النقطة بالوازع النفسي ودوره في تكييف عقيدة الفرد وإصلاحها، فهو من الوسائل الجديدة التي يقترحها للخروج من الوهن والتعاس، إذ يقول: "ولضعف الوازع النفساني في المسلمين اليوم، ولتحريفهم حقيقته، ظهر فيهم انحطاط الأخلاق الدينيّة، وضعف تنافسهم في الصالحات، ولهذا الوازع الأثر المباشر في الإصلاح الاجتماعي فضلاً عن أثره في إصلاح الفرد الذي بصلاحه يصلح كامل المجتمع."⁽⁷³⁾

3. المقاصد التربوية من إصلاح تعليم اللغة:

أما إصلاح تعليم اللغة العربية في مشروع ابن عاشور التجديدي فهو ليس ببعيد عن بقية إصلاحاته في المواد التعليمية الأخرى، بل يعتقد أنَّ اللغة "ليست كيانا منعزلاً عن سيرورة التاريخ أو إطاراً صورياً لا صلة له بحركة المجتمع وفعالياته بل إنها تنمو وترتقي بارتقاء الأمة الناطقة... وتتسع بمقدار

(69) ابن عاشور، أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، مرجع سابق، ص 57.

(70) المرجع السابق، ص 67.

(71) المرجع السابق، ص 73.

(72) العلامات التنويرية في تفكير الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، مرجع سابق.

(73) ابن عاشور، أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، مرجع سابق، ص 73.

سعة العقول⁽⁷⁴⁾ ولقد لاحظ ابن عاشور أن مساوئ التعليم تحويل علوم الآلات إلى علوم مقصودة لذاتها، وهو ما حصل في نظره في علمي النحو والمنطق. فأكثر العلماء من التفاريع والاستدلالات بما أخرجهما عن كونهما آلة وأبعدهما من مقاصديهما التربوية. وهو في حقيقة الأمر ما أصاب اللغة العربية من الانحطاط والجمود، فيقول: "إذ ألمت الأمراض الاجتماعية بالمسلمين، وفسدت الملكات بالاختلاط، وفسد الأسلوب، واقتصر الناس على ما سطر في تعلم النحو والصرف، ولذا يقرأ الرجل مسائل النحو كاملة، ثم لا يكون من بعد قادراً على تحرير رسالة أو قول معرب."⁽⁷⁵⁾

وبعدما "وضعت اللغة للتعبير عن المراد وتصوير الفكر النفساني، فلا بدع أن أخذت سعة كلما اتسعت الأفكار."⁽⁷⁶⁾ ولذلك نجده يقترح في هذا المجال عدة إصلاحات منهجية تتمثل في نوعية جديدة من المناهج التي تيسر فتح اللسان من الصغر، وحتى في سن أكبر عن طريق المحاوراة والمناظرة في المسائل العلمية، يقول ابن عاشور في هذا الصدد: "ولا طريق إلى إحياء لسان وتعلمه إلا مخالطة أهله أو كلام أهله، إن لم تمكن المخالطة مع الاحتراز عن الدخيل، فلا يمكن إصلاح لسان الطفل ما دام يسمع أباه وأمه وقرينه ومعلمه وبائع سوقه ينطقون بلسان لا يكاد يبين، أفنطمع منه أن يثبت على ما نقلنه من الأسلوب، وننتقي له من المفردات؟ مع أن تعليمها علمي فقط، لا حظ للسمع فيه."⁽⁷⁷⁾ وقد أشار إلى كون طرق تعليم اللغة العربية، تعتمد على الحفظ والتلقين، ويغيب فيها الحوار، ويقضي الطالب وقتاً طويلاً وهو ساكن لا يتحرك، صامت لا يتكلم، ويتخرج وهو لا يجيد الكلام والحوار ولا يحسن التحرير والكتابة. يقول ابن عاشور: "لا أظن أننا نحصل منه أكثر مما نحصل اليوم ممن أُولع بالعربية، وهو أن يعرف اللغة معرفة علمية كتابية، فلا بدّ من أن نصرف أسماع التلاميذ عن محادثات قومهم، وعن الكتب الضئيلة التي يطن صداها بأذانهم، بإنشاء مدرسة خاصة لتعليم اللغة

(74) الميساوي، الشيخ محمد الطاهر بن عاشور والمشروع الذي لم يكتمل، مرجع سابق، ص 72.

(75) ابن عاشور، أليس الصبح بقریب، مرجع سابق، ص 183.

(76) المرجع السابق، ص 183.

(77) المرجع السابق، ص 183.

يدخلها التلاميذ منذ صغر السن، فيؤدّبون على النطق بالعربية الفصحى بوجه علمي تمريني، بمساعدة أساتذة ذوي علم وثيق باللغة، ويلقنون أشعار العرب، وخطبهم، ومعاني القرآن وألفاظه، ويجتّبون السقط من شعر المولدين من جهة الألفاظ، أو من جهة الآداب ومكارم الأخلاق.⁽⁷⁸⁾

خاتمة:

إنّ الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور "وإنّ بدا متشددا في نظر ناقيه، إلا أنه ظل وفيا لدينه محافظا على أصالته، فهو ودون شكّ يملك الرؤية الموسعة في إعادة صياغة البرامج التعليمية بقدرات تجديدية عالية، بل ينزع في معظم الأحيان في عملية الإصلاح إلى حدّ الثورة على المألوف، خاصة في مشروعه الإصلاحي للتعليم."⁽⁷⁹⁾ فمشروعه الإصلاحي لا يخرج عن بقية ضروب الإصلاح الفكري والسياسي والاجتماعي والاقتصادي، وقد انصب إصلاحه على التعليم العربي الإسلامي، فقدم منهجا إصلاحيا متكاملا وذلك من خلال مزاولته له متعلّما ومعلّما. فعاش تجربته من الداخل واعترضت سبيله عقبات مختلفة، وقد خرج مشروعه بكثير من الملاحظات والمقترحات التي اشتمل عليها برنامجه الإصلاحي سواء من خلال إشرافه على جامع الزيتونة، أو من خلال تحمسه لهذه الآراء فعمل على تنفيذها.

وقد ساعدته في ذلك عوامل عدة دفعته لاستخلاص المقاصد التربوية من مشروعه الإصلاحي للتربية والتعليم، وذلك عن طرق جرّاته لنقد أحوال العلوم الإسلامية، وطرائق تعليمها، وأسباب النهوض والانحطاط التي مرت بها في مختلف الأزمان، مستعينا بتجربته الميدانية واستقرائه لأحوال العلم وأهله في الزيتونة وما قام به من دور رائد للحفاظ على الهوية العربية الإسلامية.

وهكذا فإنّ برنامجه الإصلاحي للتعليم التونسي ظل متميزاً من حيث الطرح والمضمون، فإنّ دقة وعمق نقده لأوضاع التعليم الزيتوني في تلك الفترة يدل

(78) المرجع السابق، ص183.

(79) الغزي، الطيب. مداخلة: قراءة في الفكر الإصلاحي للشيخ محمد الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق،

على نضج تجربته، وعمق ثقافته وسعة علمه بالدقائق العلمية، وخبرة متمرسه ووعي شامل بأبعاد الثقافة الإسلامية وعلومها، ومنزلتها، وما اعترافها من ازدهار وانحطاط في مختلف العصور.

ومقارنة بما قام به ابن عاشور في مجال الإصلاح التربوي وما هو موجود في عصرنا الحاضر من أعمال إصلاحية، فإن المباشرة والمفارقة، تبدو واضحة في الشكل والمضمون من خلال المشاريع التي تدعي الإصلاح، فلا مرء في أن المؤسسات التعليمية والمعاهد الفكرية في العالم العربي والإسلامي، اعتنت بمشروع تجديد المواد التعليمية في كامل المستويات العلمية وعدتها مسؤولية وواجباً دينياً. وحثت على إدراج أنواع من العلوم الحديثة، كالفلسفة والعلوم الاجتماعية والسياسية، قصد الاطلاع إلى إنتاج نوعية من الفكر الكوني اطلاعاً مباشراً.

إلا أن الدراسات الإسلامية في المدارس والمعاهد وحتى الجامعات اقتصر تدريسها في شكلها التقليدي الذي يعتمد على نقل ما قاله السلف، وحفظ المتون، ظناً منهم أن ذلك يساعد على إيجاد ملكة علمية، ويحصن الهوية العربية والإسلامية. إلا أنه ما تحقق فعلاً، هو العكس تماماً. حيث استحكمت أزمة معرفية في صفوف خريجها، ظهرت جلياً في نوعية المواد التعليمية بمفارقاتها الزمنية، وما تحويه من مضامين فكرية وثقافية، والمستوى العلمي لهذه النخب المتعلمة التي تفضل السعي إلى التماهي مع ثقافة الآخر وحضارته على حساب ثقافة أمتهم وحضارتهم.

وحتى تكون المراجعات في هذا المجال فاعلة وبناءة، فإنه يتحتم على القائمين على هذه النوعية من المشاريع الإصلاحية في التربية والتعليم وخاصة فيما يتعلق بالعلوم الإسلامية، أن تكون نتيجة استشارات واسعة بين أهل الاختصاص، وألا تكون مسقطة ومهمشة في محتوياتها، وأن يراعى فيها الترابط والتكامل بين المضمون والجوانب البيداغوجية. وعليه فالمنظمات التربوية، والمؤسسات الدينية، والمعاهد الفكرية، والجامعات الإسلامية، مدعوة كلها إلى الطرق مطولاً على هذا الباب الصعب، لكن في الوقت نفسه عليهم أن يكونوا حذرين وواعين، وكذلك قادرين على الإقناع بمقترحاتهم الإصلاحية.